أبعاد الشعر الديني وأهميته

المكان: طهران

الزمان: 1390/3/25ش. 1432/7/12. 9011/6/15م.

المناسبة: ذكرى ولادة الإمام علي (عليه السلام)

الحضور: جمع من شعراء ومداحي أهل البيت (عليهم السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً استمتعنا بالأشعار التي قرأها الأعزاء، وخصوصاً بعض الأشعار تضمّنت جميع المعايير والموازين المبهجة والسارّة باتجاه تطوّر الشعر. ثانياً ما يشاهده المرء في هذه الجلسة، وجلسات أخرى بعض الأحيان، هو وجود مواهب جد رصينة وغنية وباعثة على الأمل. إنني أخمّن أن يكون لنا في المستقبل غير البعيد جداً إن شاء الله ذروة شعرية أخرى بفضل هذه المواهب الشابة. وطبعاً يجب على هؤلاء الشباب أن يتقدموا ويستكملوا مواهبهم.. ينبغي تنضيج هذه المواهب وتعميقها، وهذا ما سيحصل بالتأكيد. سوف ينهض في فترتنا إن شاء الله صرح رفيع يذكر بفترات ذروة الشعر في بلادنا، فقد كان للشعر على امتداد الحقب التاريخية منعطفات وصعود وهبوط، وقد بلغ الشعر في بعض الفترات ذروته وأوجه. وسوف يتحقق هذا لنا إن شاء الله في مستقبل غير بعيد جداً.

هناك عدة نقاط أذكرها كتوصيات للإخوة باعتبارها مناسبة لهذه الجلسة. من هذه النقاط أن هذا الشعر الذي أطلقتم عليه اسم الشعر الديني، وهي تسمية ليست غير مناسبة، من أفضل المجالات لتوظيف القريحة الشعرية وهذه الموهبة العظيمة التي منّ الله بها. هذه القريحة نعمة كبيرة يعطيها الله للإنسان، ويجب عدم كفرانها. وشكر هذه النعمة يكمن في أن يستخدم الإنسان هذه القريحة لإنتاج شيء يعرضه علي الناس والأفكار، ويكون هذا الشيء مفيداً.

ولا أريد أن أقول بتصلب وجمود وبصرف النظر عن انتفاع المستمع واستفادته أن لا يفكر الشاعر باختلاجات فؤاده ولا يعبِّر عن ما يجول في خاطره ومشاعره، لا، لا إشكال في هذا. أي إننا لا نروم رفض أن ينظم الشاعر شعره من صميم قلبه ولأجل قلبه. لكننا نريد القول على مستوى التقييم إنه إذا كان المفترض أن يكون للشعر مضامين ومحتوى فأفضل محتوى هو المحتوى الديني بمدياته الواسعة المترامية.

حتى في جوانب من الأشعار الغزلية لحافظ الشيرازي هناك شعر ديني. وبالطبع فأنا لا أعتقد أن كل أشعار حافظ الغزلية على هذا الغرار، لكن جزءاً مهماً من أشعاره هو في الحقيقة شعر ديني بهذا المعنى الذي نقصده. أي التعبير عن المعارف والحقائق الإلهية في قالب خاص. كما أن المثنوي للمولوي أيضاً كتر من هذه الأفكار والمعارف الإلهية. إذن تعدّ هذه المضامين تعدّ أفضل موضوع للشعر. طبعاً، حينما ينظر المرء لتاريخ الشعر يجد أن هذا التقيد والالتزام لم يراع من قبل الشعراء على امتداد التاريخ، أي إنهم بذلوا هذه الجوهرة الفريدة ــ أو«درٌّ دري» على حد تعبير ناصر خسرو ــ على أقدام الخنازير، ومدحوا وأنتجوا أشياء تافهة لا معنى لها، وبعضهم استخدمها للتعبير عن معان مبتذلة وحسية وشهوانية. وهذا في الحقيقة إسراف وتوظيف للقريحة الشعرية في غير محلها.

طبعاً ليسوا قلائل بين شعرائنا أولئك الذين استفادوا من هذه القريحة إلى أقصى الحدود وأنتجوا أفضل الأشعار. لدينا من هؤلاء الشعراء في مختلف العصور. لدينا أمثالهم في زماننا وفي الأزمنة الماضية وعلى شتى الأساليب والمدارس. منذ العهود القديمة كان لدينا شاعر مثل سنائي وناصر خسرو. لقد استخدم هؤلاء هذه القريحة وقاموا للحق والإنصاف بما يجب أن يقوموا به. ولدينا كذلك سعدي الشيرازي. وكذا الحال بالنسبة للأحقاب اللاحقة، إذ لدينا شاعر مثل صائب التبريزي. طبعاً ليست قليلة أشعار صائب غير المتقيدة بالمعاني والمعارف السامية، لكن لديه للحق والإنصاف أيضاً غير قليل من الشعر الطافح بالمعارف. نظم هؤلاء أشعاراً أخلاقية ومعارفية وبأعلى المستويات وبأفضل الأشكال التي يمكن للمرء حقاً أن يذكر بها الشعر الغزلي. وكذا الحال بالنسبة للشاعر بيدل دهلوي. وكل ديوان بيدل تقريباً هو من شعر المعارف. ذات مرة قبل سنوات أوصيت الأعزاء من مداحي أهل البيت بأن ينظروا في ديوان صائب ويفتشوا فيه

عن الشعر الأخلاقي والشعر المعارفي والشعر العرفاني، ومثل هذه الأشعار ليست قليلة في ديوانه. إنها مضامين جد ناضجة وتنير القلوب.

يقول مثلاً:

در هيچ پرده نيست نباشد نواي تو

عالم پر است از تووخاليست جاي تو

هر چند كائنات گداي در تواند

هيچ آفريده نيست كه داند سراي تو

الترجمة:

ما ستار يخلو من صوتك وأنغامك

العالم ملئ بك ومكانك مع ذلك خالٍ منك

مع أن الكائنات كلها فقراء واقفون ببابك

ولكن ما من مخلوق يعلم أين دارك وبابك

لاحظوا أية ثورة سيخلق المداح في قلوب المستمعين حينما يقرأ بصوته ولحنه الجميل هذه الأبيات في مجلس من المجالس. ينبغي الاستفادة من هذه الأشعار. وكذا الحال بالنسبة للآخرين.

وأضيف هنا ــ وقد دوّنت هذه النقطة لكنني سأذكرها الآن ــ أن بعض السادة المداحين يقولون لنا إننا حين نقرأ الأشعار الفاخرة الرفيعة المستوى فإن الناس لا يفهمونها. نعم، بعض الأشعار هي من هذا الطراز فعلاً، أي إنها أرفع من المستوى الفكري العام للناس، وحتى الإنسان الأديب الشاعر صاحب الذوق يجب أن يدقق حتى يدرك معانيها. نحن لا نوصي بهذه الأشعار، ولكن لاحظوا أن ذهنيات الناس وتلقي المخاطبين يرتفعان بما تقرؤونه لهم. هذا ما أقوله لمداحي أهل البيت، فأنتم تستطيعون رفع المستوى الذهني للناس. لتُقرأ الأشعار الجيدة والألفاظ الجميلة

والمضامين الرفيعة والمعارف المتينة. والناس مضطرون بالتالي للاستماع، إذ حينما تقرؤون جيداً سوف يستمعون وسوف يرتفع مستوى ذهنياتهم طبعاً. لا بد أن نجعل هذا من جملة واجباتنا بأن نرفع من مستوى رؤية الناس وأذواقهم وتأملاتهم.

النقطة التالية هي أن المناجاة جزء من الشعر الديني. ليس الشعر الديني مجرد المدح والمراثي، فالمناجاة أيضاً جزء من الشعر الديني. ومن أجل أن نجد مضامين المناجاة بشكل جيد وصحيح فإن الأدعية هي خير مرجع ومصدر لنا. ليطالع الأعزاء الصحيفة السجادية ويستأنسوا بها. هذه القرائح التي أراها فيكم تستطيع أن تستفيد بنحو جيد جداً من مضامين الصحيفة السجادية وتصبّها في قوالب الأشعار الجميلة جداً. المرحوم بهجتي أردكاني ــ صديقنا القديم ــ نظم جانباً من دعاء أبي حمزة الثمالي شعراً قبل ثلاثين أو أربعين عاماً، وقد قرأ منظومته لي. وكانت المضامين التي نظمها هي الأجزاء الصعبة من الدعاء ــ فتعابير الدعاء هناك صعبة ومضامينه صعبة ــ ومع ذلك استطاع تحويل ذلك الدعاء إلى منظومة شعرية. وأرى الآن بين هؤلاء الشباب قرائح وأذواقاً أعلى من قريحة المرحوم بهجتي. في نفس هذه الجلسة أرى قدرات شعرية أقوى وأحدّ وأقدر من القدرات الشعرية للقدماء والماضين. بوسعكم تحويل مضامين دعاء عرفة لسيد الشهداء (سلام الله عليه) إلى شعر. دعاء عرفة للإمام الحسين دعاء عاشق. وللإمام السجاد أيضاً دعاء في يوم عرفة ــ في الصحيفة السجادية، الدعاء السابع والأربعون، دعاء يوم عرفة ــ وهو أيضاً دعاء عميق المعاني زاخر المضامين. لكن دعاء الإمام الحسين دعاء عاشق وشيء مختلف. إذا تعرفتم على هذه الأدعية واستأنستم بها ودققتم فيها لكان بوسعكم استلهام فقرة واحدة من هذا الدعاء لنظم قصيدة كاملة أو مجموعة أبيات أو مقطوعة غزلية جد جميلة. إذن استفيدوا من الصحيفة السجادية والأدعية لنظم أشعار المناجاة والتوحيد.

واستفيدوا من الزيارات وخصوصاً زيارة الجامعة الكبيرة لنظم مناقب الأئمة. وبذلك سوف لن تحتاجوا أبداً لخلق مبالغات في أذهانكم. ما يجب أن يقال حول الأئمة (عليهم السلام) موجود في الزيارة الجامعة. بمقدوركم اختيار فقرة من فقرات الزيارة الجامعة ــ وربما مئات الفقرات ــ وإنتاج أبيات غزلية جميلة وأصيلة حسب قريحتكم الشعرية وخيالكم وإبداعكم الذهني. إمكانيات واستيعاب هذه المعارف كبير إلى هذه الدرجة.

استخرجوا المعارف الإسلامية والقرآنية السامية من القرآن الكريم نفسه ومن نهج البلاغة ومن بعض روايات أهل البيت من قبيل روايات أصول الكافي في بعض أقسامه. واستأنسوا بهذه المصادر، فالشعر الديني له مديات واسعة جداً وبوسعكم التأثير على ذهنية المجتمع. ثمة رواية في تحف العقول هي توصية من الإمام الصادق (عليه السلام) لعبد الله بن جندب تشتمل على أجزاء يقول فيها الإمام: يا ابن جندب يا ابن جندب.. وهي رواية زاخرة بالحكمة. الحق أن كل ما نحتاجه لأخلاقنا الشخصية ولمعاشرتنا الاجتماعية ولأنشطتنا العامة ولبناء الحضارة الإسلامية يمكن أن نجده في هذه الرواية ونظائرها. وهذا الذي ذكرته إنما هو نموذج ومثال. والنماذج من هذا القبيل كثيرة وباستطاعتكم مراجعتها. إذن أقيموا الشعر الديني على هذه المعارف الإلهية الحقة وبهذه المصادر التي ذكرت.

المسألة الأخرى هي أن الإنسان حينما يرى هذه القرائح والأذواق المتدفقة يأخذه الشوق والحماس حقاً. شددوا على هذه الأمور: أولاً البحث عن المضامين. عندما تريدون التعبير عن فكرة معينة فيمكن التعبير عنها بمضامين متنوعة. صناعة المضمون للتعبير عن حقيقة معينة فن شعري ضخم جداً. وطبعاً فإن قطب هذا الفن ومصدره الرئيسي هو أشعار الأسلوب «الهندي». أشعار صائب، وبيدل، وعرفي، وكليم. حينما تراجعون أشعار هؤلاء تجدون أن جهاز صناعة المضامين والبحث عن المضامين والعثور عليها واسع جداً. ولحسن الحظ فإن المضامين الجديدة والجميلة ليست قليلة في تعابير الأصدقاء الأعزاء، وهذا ما أراه. يمكن خلع عدة أردية على الفكرة، ونسمّي كل ثوب نخلعه على الفكرة مضموناً. هذا هو المعنى ذو المضمون. إذن إحدى النقاط والمسائل هي مسألة البحث عن المضامين.

المسألة الأخرى هي التراكيب الجديدة. في الفترة الحالية بعد الثورة دخلت لغة الكلام المتداولة إلى الشعر ــ وهذا ما لم يكن موجوداً قبل الثورة ــ طبعاً بأشكال مختلفة، فبعض النماذج قوية رصينة استخدمت اللغة الدارجة بشكل جميل جداً وبعضها ذات مستويات أدنى. لا إشكال إطلاقاً في أن نستخدم لغتنا الحوارية الدارجة العادية للتعبير عن تلك المعاني والمعارف، ولكن بتراكيب جديدة وأشكال ومفردات جديدة.

المسألة الأخرى هي التعبير الصحيح. على الأعزاء أن يتنبهوا لهذه النقطة وهي أن الشعر يجب أن يكون صحيحاً من حيث موازين اللغة وقواعدها. يجب استخدام الأفعال بصورة صحيحة وفي المحل المناسب، كما ينبغي أن يكون ترابط أجزاء الجملة ترابطاً منطقياً قانونياً.

النقطة التالية التي أعتقد أنها مهمة لمجموعة الأعزاء الذين ينظمون الشعر الديني هي مسألة تأثير المحيط والبيئة عليهم. وطبعاً، لا أقصد البيئة العامة للمجتمع. فمن البديهي أن تترك البيئة الاجتماعية تأثيرها على الفرد. الوضع الاقتصادي والوضع السياسي والوضع الاجتماعي يترك تأثيره على كل إنسان، ويترك تأثيره على الشاعر أيضاً، ومن الطبيعي أن يترك تأثيره على شعره كذلك. لا أريد التحدث عن هذا الجانب. البيئات الخاصة والحلقات الثقافية الخاصة تترك تأثيرها على الأذهان. أريد أن أقول لكم أيها الشباب المؤمنون المتدينون الملتزمون المحبون لأهل البيت الذين تتحدثون بحماس وحب عن أهل البيت، وتنظمون الأشعار وتتحدثون بطريقة عاشقة جميلة عن المعارف الإلهية وعن التوحيد، إحذروا من أن تجرّكم البيئات إلى اتجاهات أخرى. أي راقبوا أنفسكم بأنفسكم. وشجعوا أنفسكم على الثبات في هذا الطريق، وعززوا هذا الثبات يوماً بعد يوم، فالأجواء الشعرية والفنية والأدبية تترك تأثيرها على الإنسان.

ثمة في ذهني مثال أتذكره دائماً. الشاعر الذي أقصده والذي سأذكر اسمه الآن شاعر كبير هو محمد جان قدسي مشهدي. إنه من الشعراء البارزين في الأسلوب « الهندي» خلال العهد الصفوي ــ القرن الحادي عشر للهجرة ــ وشعره من أمتن الشعر. أعتقد أنه من بعد صائب لا يوجد في ذلك الأسلوب مثل محمد جان سوى واحد أو إثنين من الشعراء. حينما كان في مشهد كان خادماً للروضة الرضوية المقدسة ومن مداحي الإمام الرضا، وكانت أشعاره أشعاراً دينية وديوانه ملئ بهذه الأشعار. أنظروا في ديوان حاج محمد جان، وستجدون أن مثل هذه القصائد كثيرة هناك. لكنه في مرحلة لاحقة هاجر إلى الهند، وجالس أمراء الهند وسلاطينها، واختلط بالبلاط المتهتك غير الملتزم هناك، فقلبت تلك البيئة هذا الرجل رأساً على عقب. وهذا ما يمكن أن يلاحظه المرء في أبياته الغزلية. إنني كثيراً ما أفكر بهذه الحالة. هذا الشعر لمحمد جان قدسي:

پارسا در مجلس رندان نشستن خوب نیست

هر که امشب من نمینوشد به ما منسوب نیست

در چنين فصلي كه بلبل مست وگلشن پر گل است

گر همه پيمانه ي عمر است خالي خوب نيست

الترجمة:

ليس من الحسن الجلوس بورع في مجلس الشطار

كل من لا يشرب الليلة لا ينتسب لنا

في مثل هذا الفصل حيث البلبل سكران والروض مكتظ بالأزهار

ليس من الحسن أن تعود كؤوس العمر كلها خالية

أي إن البيئة الشعرية استلمته سكيراً شاطراً معربداً شرّيب خمر، بعد ما كان إنساناً ورعاً طاهراً متعبداً ينظم المديح للإمام الرضا في مشهد! تلك البيئة هكذا أنشأته طبعاً. لذلك إحذروا من البيئات، وهذا ما يحصل عن طريق ارتباطاتكم وتواصلكم الدائم مع بعضكم. أعتقد أن جلسات الشعراء المادحين لأهل البيت ــ سواء الشباب أو الرواد والقدماء ــ مع بعضهم يجب أن تكون متواصلة مستمرة. وهذا لا يعني أنها لا بد أن تكون جلسة واحدة فقط، لا، ينبغي أن تكون هناك جلسات من أجل تنمية وترشيد المواهب المتدفقة الشابة في هذه البيئة.

والنقطة الأخيرة هي أن الشعر الديني قليلاً ما يتطرق لبعض الموضوعات، ومنها الموضوعات ذات الصلة بالثورة وقضايا الحرب والدفاع المقدس. طبعاً كان الحال جيداً جداً في فترة من الفترات. السيد مؤيد نفسه، حينما جاءوا بجثامين الشهداء في زمن الحرب إلى مشهد، ربما كان ينظم في كل يوم أو في كل بضعة أيام قصيدة غزلية يقرؤها المداحون، ويقرؤها الآخرون. والآن فإن مكان مثل هذه الأشعار خالٍ. ثمانية أعوام من الدفاع المقدس كانت من حيث الزمن ثمانية أعوام، لكنها من حيث استمرارها المعنوي والفكري والثقافي قد تستمر لعدة قرون. الملحمة التي برزت في الدفاع المقدس والدوافع التي كانت وراء هذه الملحمة والحوادث التفصيلية التي وقعت خلال هذه المدة ليست أموراً تنتهي في غضون عشرة أعوام وخمسة عشر عاماً وعشرين عاماً. وأنتم من جملة الأمناء ويجب عليكم صيانة هذه الأمانة ونقلها للآخرين.

طبعاً هناك في الثورة أحداث متجددة يوماً بعد يوم ويجب التطرق لها جميعاً، لكن ينبغي في الوقت ذاته عدم نسيان تلك الأحداث. من الأمور المتعلقة بالحرب والتي تشغل بالي هـــؤلاء المعـــاقون الذين يستشهدون بعد مدة، وهذا بحد ذاته موضوع خاص. هذا أمر يختلف عن الشهيد الـــذي استشهد في الجبهة ونظمت عنه الأشعار. هذا إنسان مرّ بتجربة وتحمل آلاماً ونال بعدها وســـام الشهادة. إبحثوا عن موضوعات من هذا القبيل. وكذا الحال بالنسبة لموضوعات تتعلق بـــالمراثي ومراثي سيد الشهداء وواقعة كربلاء. يرى الإنسان ألسنة الحال التي تذكر وهي كثيرة، وقد لا تتطابق بعضها مع الواقع، أي إنها ليست من الأمور التي بوسع المرء تأييدها، ولكن ثمـــة هنـــاك أرضيات. حول مصيبة سيدنا أبي الفضل (عليه الصلاة والسلام) مثلاً يلوح لي أن من الجوانب المهمة والجذابة التي بمقدورها التعبير عن هذه المصيبة هو لسان حال والدة سيدنا أبي الفضـــل.. حيث تقول: «لا تدعوني ويك أمّ البنين»، أو شعر آخر ينسب إليها. هذان شعران ترجمـــا، ولم تكن الترجمة لافتة جداً أو قوية. لكن هذا بحد ذاته مجال. أمّ تجلس في البقيع بالمدينة عند قبـــور أبنائها الأربعة الذين استشهدوا في كربلاء وتنوح وتنشد وتخلق الملاحم. ليست القضية كلـــها ذرف دموع ولطم على الرؤوس ــ يوجد أيضاً بالطبع ذرف دموع ولا إشكال فيه ــ إنما هناك أيضاً ملاحم وحماسة وفخر بهؤلاء الشباب. هذا مجال جيد جداً وينبغي الاستفادة كثيراً من هذه المجالات لذكر المصاب. أو وصف بعض الحالات الروحية لأبطال كربلاء من قبيل ما قاله عمان ساماني إذ صوّر لحظات سير الإمام سيد الشهداء إلى ساحة الحرب ــ ولا أدري كم هي واقعية هذه الصورة لكن قراء التعازي يقرأونها – عندما تأتي السيدة زينب وتقف أمامه وتقطع عليـــه الطريق ويدور حوار بينهما. استفاد عمان من هذا الحوار لشرح شخصية السيدة زينب.

كاي عنان گير من آيا زينبي؟

يا كه آه دردمندان در شبي؟

الترجمة:

هل أنت زينب يا من تمسكين بعنان فرسي؟

أم أنت آهات المعذبين في الليالي؟

ثم يقول: «زن مگومردآفرين روزگار».. لا تقل امرأة بل هي صانعة الرجال في عصرها. لاحظوا أنه يستفيد من هذه المناسبة ــ مناسبة الحوار بين الأخ وأخته ــ ليسلط الأضواء على شخصية السيدة زينب (سلام الله عليها) ويشرحها. هذه مجالات مهمة فلا تكون ألسنة الحال مقتصرة على بيان ما حصل من أحداث وأحوال لأبطال القصة في تلك الساعات، إنما يمكن شرح خصوصيات الشخصيات ودقائقهم الروحية وعظمتهم. هذه كلها مجالات.

على كل حال، أسأل الله أن يوفقكم ويؤيدكم لتستطيعوا التقدم أكثر فأكثر على هذا الصعيد. كان اليوم يوماً طيباً بالنسبة لي. وقد استمتعت كثيراً بالأشعار التي قرأها الأعزاء. إنني أدعو لكم وأرجو أن يجعل الله أذهانكم أنشط يوماً بعد يوم، وقرائحكم أخصف وألسنتكم أبلغ، واتجاهات عملكم أكثر استقامة وأفضل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.